وفي الدين بك يكن

٢

باريس عاصمة ملك حُذيتْ على غير منوال

اذا أطرى الواصفون بلدةً قالوا : هي الجنةُ ، أنهارُها جارية ، وبناياتها شامخة ، ورياضها يانعة ، واشجارها ثامرة ، واعوادها زاهرة . . . أوصافٌ ابتذلتها اقلامُ الكاتبين ، ووقفت عندها بديهات الشعراء

أما باريس فلا تتناولها هذه الاوصاف . كل شيءٍ هو دونَ

ماوُصفَ به ، الا باريس فهي فوق ما وصفتْ به

قال اكثرُ الناس : الجمالُ غريبٌ لا وطن له ... كذبوا . باريس وطنهُ ومشرقُ شمسهِ

الذين رأوا باريس عرفوا محاسنها وهم فيها . وابناؤها عرفوا محاسنها وهم فيها . فلما فارقوها إمّحتْ صورُها من اذهانهم إلا قليلاً بقي بها ما تحتملها العقولُ وانضوى ما لا تحتمله . هذه محاسن ترتعُ فيها النفوسُ والنواظرُ معاً . وفيها مايدخلُ النفوسَ لا عن طريق الاستشعار ، بل عن طريق الادراك . وحين تزايلُ الابصارَ اشكالها تزايلُ البصائرَ خيالاتها

الطرقاتُ السويّة ، والقصورُ العالية ، والمصابيحُ المتلألئة ، والجسورُ الممتدَّة ، والكنائس المرتفعة ، والدُّمى المنصوبة ، والمصانعُ العاملة والأندية الحافلة يتأوَّد بينها برجُ ايفل ،[1] كأنه خطيب الحرية بين تلك العجائب ، بل كأنه حارس القضاء موكل بسكان البانثيون [2]

سبحانك اللهم ما اكبر قدرتك ، بل ما افصحها وابلغها من قدرة ... :

البلدة الطيبة التي فرعت الحوادث مروتها ، ثم ضحكت لها وجوهها ، ربيبة العزّ على اختلاف انواعه : عز الجمال ، وعز العلم ، وعز الدولة . اختلفتْ

---

(١) برج عظيم في باريس يبلغ علوه ٣٠٠ متر بناه المهندس الذي اطلق عليه اسمه

(٢) البانثيون كما يدل اسمه اليوناني الاصل هيكل « لجميع الآلهة » بناه في رومة القائد الشهير اغريبا صهر اغسطس قيصر . والبانثيون في باريس بناية فخيمة يدفن فيها عظماء الرجال

فيها مواكب الابهة . دخلها هنري الرابع فاتحاً . وعاودها بونابرت ظافراً ولكن تهادت فيها انطوانت [1] الى ميدان القصاص . وهي بعد ذلك رقت ودقت وحلت : فكانت الفاتنةَ يوم فرحها ، وكانت الفاتنةَ يوم ترحها

وان مواقع الجياد ، يوم دخلها غليوم الاول ، لهي مواقع القُبل من شفاه عشاقها . ذلك اديمٌ تنبو عنه الشقوة ، ويترقرق عليه النعيم

لم يسعدني الزمان بزورةٍ لها ، وكم اشتقتها ، وكم اشتاقها . . . ! وانما عشقتها الروح ، ولم ترها العين . وما كان عشقي لها على قدر ما نعتها به الناعتون فاقول : « الاذن تعشق قبل العين احياناً » ولكن عشقي لها على قدر معرفتي بها

بيني وبينها الفدافد والبحار . لم يستجلِ مرآتها ناظراي . غير أنّ نفسي حلّقت بسمائها وخواطري جالت في ارجائها

كلما انشدتُ بيتاً لهوغو أو لموسه ، خلتني أنشدُ شعرها وأترجم لذاتي عنها

حين أُبصر الباريسي الظريف في حديثهِ الطيب ، وشمائله المليحة ، أذكر باريس ... وحين أُشاهدُ الباريسية في شعرها الذهبي ، وعينيها السماويتين ، وحديثها العذب ، إخالُ جزءاً من باريس يتكلم ، بل أحسَبُ روحَ باريس تمثّلتْ لعينيَّ لتوحي اليَّ معانيَ الشعر . ولترسل من أعماق روحي كوامنَ الاعجاز ...

---

(١) ماري انطوانت قرينة لويس السادس عشر ملك فرنسا اعدمت سنة ١٧٩٣ ابّان الثورة الفرنسوية الكبرى

تتغيرُ باريس ما بين غمضة عينٍ وانتباهتها : هكذا ينبغي ان تكون . . . للجمال فيها كلَّ آونةٍ شأنٌ جديد « الجمالُ فيها موضه » فلو تأملوا إحدى فاتناتها ، لألفوها صباحاً كالخوخةِ كلها الندى ، وفاح لها شذا . ولرأوها ظهراً ، وقد تمشت فيها حرارة الشمس حتى لتجانبها الشفاه اشفاقاً ، بعد اذ تطامنها لثماً . ولوجدوها مساءً وقد جمد قشرُها وبرد ، حتى لتزلَّ عنها الثنايا اذا حاولتْ لها عضاضاً

الله في باريس وفي فتن باريس : عروس اوربا « الغالية » ، بنت التمدين ، المثال الاجمل لكل شيء : يتشبه الناس بابنائها . يلبسون كلابسهم ، ويأكلون كما كلهم ، ثم ينطقون بالسنتهم ، ثم يفتذون بعلمهم كذلك كانت باريس ، وكذا ستكون

* * *

تعالوا نبكي على باريس في اطلالها ورسومها ، وفي اشلاء مواتها ، وفي قصورها المتداعية . ابتدرتها سوابق عبرات السماء بمتصلة الشآبيب ، وانشق لها صدر الغمام عن كل متداني الهيدب غداةَ اقبل عليها «السين» في اواذيّه المتدافعة ، وازباده المترامية

كم مقلة بالامس يتكلم إنسانها عن الصبا ، جاد غربها اليوم بواكفٍ هتان . وكم وجنة رقّ عليها ماء الشباب ، خدّدتها مسيلات الدموع

عبست تلك الوجوه الضاحكة ، وخلت هاتيك المغاني الآهلة ، وعُطلت مصانعُ طالما اجادت تنميقَ المحاسن في كل البلاد ، وباتت بلادُ الله تندب حسناءها . . .

قال احدُ ادباء الفرنسويين « لكل امريء وطنان : وطنه الاصلي ووطنه باريس » فلبيكِ اذن على باريس كلُّ الناس ، فهي وطن كل الناس من حقها على من اكرمت وفادتهم ورحبت بهم منزلاً ، ونثروا عليها التبرَ وهي حالية ، ان يكرموها في مصابها ، وان ينثروا عليها التبر وهي عاطلة

سأبكي باريس مستمداً دموع الغمائم ، مستعيناً بعيون النيّرات . فان تنفدِ الدموع ، فانّ من الاسى ما يُجدده الشوق ، ويغنيه الغرام . سلامٌ على باريس في مصابها . سلام عليها في جلبابها الاسود . وكأنها العذراء بعثت لتدعو العالم الى السجود . . . ولى الدين يكن

الغد

السيد مصطفى لطفي المنفلوطي أشهر من ان يعرف . فلقد نالت كتاباته الرائقة شهرة بعيدة وتناقلتها صحف القطرين . وهو مباشر الآن طبع كتاب تحت عنوان « النظرات » جمع فيه ما نشره على صفحات الجرائد والمجلات . وسيكون هذا الكتاب النفيس خير متحفٍ جمع بين اسلوب الاقدمين وتفنن المحدثين . وسنعود اليه بالتفصيل بعد بروزه من عالم الطباعة الى عالم المطالعة . ونحن واثقون بان كل قارئ سيضمه في مكتبته الى كتبه الثمينة . وقد تفضل صاحبه بان يترك لنا اختيار ما نريد من « الملازم » التي نجز طبعها لنحلي به العدد الاول من هذه المجلة . ولذلك أُتيح لنا ان نتحف القراء بالمقالة الاولى من كتاب « النظرات » وهي تحت العنوان المتقدم :

عرفتُ أني فكرتُ ليلة الأمس فيما اكتب اليومَ ، وعرفتُ أني ممسكٌ الساعةَ قلمي بين أصابعي ، وأنّ بين يدي صحيفةً بيضاءَ ، تسودُّ

قليلاً قليلاً، كلما أجريتُ القلمَ فيها . ولكني لا أعلمُ هل يبلغُ القلمُ مداه ، اويكبو [١] دونَ غايته . وهل أستطيع ان أتمَّ رسالتي هذه او يعترض عارضٌ من عوارضِ الدهرِ في سبيلها . لأني لا أعرفُ من شؤونِ الغد شيئاً . ولأن المستقبلَ بيد الله

عرفتُ أني لبستُ اثوابي في الصباحِ وأني لا أزالُ ألبَسُها حتى الآنَ . ولكني لا أعلمُ هل أخلعُها بيدي ، اوتخلعُها يدُ الغاسل

الغدُ شبحٌ مبهمٌ يتراءى للناظرِ من بعيدٍ فربما كان ملَكاً رحيماً . وربما كان شيطاناً رجيماً . بل ربما كان سحابةً سوداءَ ، اذا هبتْ عليها ريحٌ باردةٌ ، حللتْ اجزاءَها ، وفرَّقت ذراتِها ، فاصبحتْ كأنما هي عدمٌ من الاعدام التي لم يسبقْها وجود

الغدُ بحرٌ خضمٌّ زاخرٌ يَعُبُّ عُبابُه [٢] ، وتصطخب امواجُه [٣] ، فما يُدريكَ إن كان يحملُ في جوفه الدرَّ والجوهر ، او الموتَ الاحمر

لقد غمَضَ الغدُ عن العقول ودقَّ شخصهُ عن الانظار ، حتى لو ان انساناً رَفعَ قدمَه ليضعها لا يدري أيضعُها على عتبةِ القصر ، او على حافة القبر

الغد صدر مملوء بالاسرار الغِزار تحوم حوله البصائر وتتَسقَّطُه [٤] العقول وتستدرجهُ الانظار ، فلا يبوحُ بسرٍّ من اسراره الا اذا جادت الصخرة بالماء الزلال

---

(١) هذه الحواشي للمؤلف : كا يكبو كبوا سقط على وجهه

(٢) يعب عبابه يرتفع موجه　(٣) اصطخبت الامواج ارتفعت اصواتها

(٤) تسقط الخبر اخذه شيئاً فشيئاً

كأني بالغدِ وهو كامنٌ في مكمنه ، رابضٌ في مجثمه [1] متلفعٌ بفضل إزاره ، ينظر الى آمالنا وأمانينا نظراتِ الهزوء والسُّخرية ، ويبتسمُ ابتساماتِ الاستخفافِ والازدراء

يقول في نفسه لو علَمَ هذا الجامعُ انه يجمع للوارث ، وهذا الباني انه يبني للخراب ، وهذا الوالدُ انه يلدُ للموت ، ما جمعَ الجامعُ ولا بنَى الباني ولا ولَد الوالد

ذَلَلَ الانسانُ كلَّ عقبة في هذا العالم ، فاتخذَ نَفقاً [2] في الارض ، وصعد بسُلَّم الى السماء ، وعَقدَ ما بين المشرق والمغرب باسبابٍ من حديد وخيوطٍ من نحاس [3]

انتقلَ بعقله الى العالَمِ العُلويّ فعاش في كواكبه ، وعرف اغوارها وانجادها وسهولها وبطاحها وغامرها وغامرها ورَطبها ويابسها

وضعَ المقاييس لمعرفة أبعادِ النجوم ومسافات الاشعةِ ، والموازينَ لِوزن كُرَةِ الارض مجموعةً ومتفرقة

غاص في البحار فعرف اعماقها وفحصَ تُربتها وأزعجَ سكانها ونبش دفائنها وسلبها كنوزها وغلبها على لآلِئها وجواهرها

نفذَ من بين الاحجار والآكام [4] الى القرون الخالية فرأى اصحابَها

---

(١) مجثم الطائر موضع جثومه اي تلبده بالارض (٢) النفق السرب في الارض ينتهي بمخرج • يشير الى نفق القطارات الحديدية في بطن الارض في بعض البلاد (٣) الاسباب الحبال وكل ما يوصل بين الشيئين • يشير الى اتصال العلائق بين اقطار الارض بسبب قضبان الحديد واسلاك الكهرباء (٤) يشير الى ما وقف عليه العلماء من الحقائق التاريخية بعد الاطلاع على الآثار التاريخية

وعرف كيف يعيشون ، واين يسكنون ، وماذا يأكلون ويشربون

تسرَّب من منافذ الحواسِّ الظاهرة الى الحواس الباطنةِ فعرف النفوس وطبائعَها . والعقول ومذاهبَها . والمدارك ومراكزها . حتى كاد يسمع حديثَ النفس ودبيب المنى

اخترقَ بذكائهِ كلَّ حجاب ، وفتح كلَّ باب ، ولكنه سقطَ أمامَ بابِ الغد عاجزاً مقهوراً لا يجرأ على فتحه ، بل لا يجسُرُ على قرعه ، لانه باب الله . والله لا يُطلعُ على غيبه احداً

أيها الشبح الملثَّمُ بلثام الغيب . هل لك ان ترفع عن وجهك هـذا اللثامَ قليلاً لنرى لمحةً واحـدةٍ من لمحات وَجهك ، أوْ لاَ ، فاقتربْ منا علنا نستطيعُ ان نستشفَّ خيالَك من وراء هذا اللثام المسدولِ فقد طارت قلوبُنا شوقاً اليك ، وذابت اكبادنا وجداً عليك

ايها الغد . ان لنا آمالاً كباراً وصغاراً ، وأماني حِساناً وغير حسان . فحدّثنا عن آمالِنا أين مكانها منك . وخبِّرنا عن امانينا ماذا صنعتَ بها . أأذلتَها وأهنتَها ، ام كنتَ لها من المكرمين

لا لا . صُنْ سرك في صدرك ، وابقِ لثامَك على وجهك ، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وأمانينا حتى لا تَفجعنا فيهـا ، فتفجعنَا في ارواحنا ونفوسنا فانما نحن احياء بالآمال وان كانت باطلة . وسعداء بالاماني وان كانت كاذبة

وليست حياةُ المرء الا أمانيا　　اذا هي ضاعت فالحياةُ على الأثر

مصطفى لطفي المنفلوطي